الصين وثورتها

آداب الصينيين وعاداتهم

مضى على الصين مئات بل الوف من الاعوام والصينيون جارون في كثير من عاداتهم على نسق واحد فتمكنت منهم حتى صار نزعها عسيراً ان لم يكن متعذراً ولذلك لا يلامون اذا ساروا سيراً وئيداً تجاه اساليب العمران الاوربي المخالفة لاساليبهم

ومن عاداتهم القديمة التي لها تأثير شديد في اخلاقهم واحوالهم الاجتماعية انهُ يجب على كل صيني ان يدفن حيث وُلد ولذلك ترى المهاجرين منهم الى البلدان البعيدة يهتمون بنقل موتاهم الى بلادهم ودفنهم في مسقط رأسهم . ومن اهم ما تُعنى بهِ جمعياتهم الخيرية في البلدان الاجنبيةِ جمع الاموال لنقل جثث الموتى الى وطنهم الاصلي . وكلما جاء شهر مايو (ايار) خرج الصينيون لابسين البياض لبس الحداد الى مدافن اسلافهم بالازهار والاثمار والقرابين المختلفة يقربونها الى ارواح موتاهم كأنهم يعبدون اسلافهم عبادة

وآداب الزيجة والمعاشرة لا تقل عن آداب دفن الموتى تمكناً من نفوس الصينيين وتأثيراً في اخلاقهم حتى يروى عن كنفوشيوس فيلسوفهم الاعظم انهُ قال ان الآداب اصل كل الفضائل . وعندهم ان التمدن انما يمتاز على التوحش بالآداب اي بقوانين السلوك والمعاشرة . وفي حكومتهم ديوان خاص بالرسوم لهُ القول الفصل في ما يجب الجري عليهِ منها . وامر الزيجة موكول الى والدي الزوج والزوجة فلا اختيار للزوجين فيها . ولها عندهم رسوم كثيرة يضيق المقام عن سردها وتدلُّ كلها على ان الواحد منهم غير مستقل بذاتهِ بل هو مقيد بعادات وتقاليد لا يستطيع الخروج عنها

وللرجل حق ان يبيع اولادهُ عبيداً ولكن قلما يعمل بهذا الحق غير الفقراء ولذلك يقل العبيد في بلاد الصين . والغالب ان يكون الرقيق من النساء لا من الرجال . ويتحرر اولاد الارقاء في العقب الخامس

والصينيون اهل ادب وظرف ومجاملة ويسلمون بعضهم على بعض بانحناء الرأس . وليس عندهم يوم خاص بالراحة من ايام الاسبوع ولكن عندهم اعياد كثيرة اهمها يوم رأس السنة يوفون ديونهم قبلهُ ويشترون ثياباً جديدة لهُ . ومن اعيادهم عيد البدر وعيد القناديل وعيد قارب التنين . وتمتاز اعيادهم بكثرة ما يستعملونهُ فيها من قناديل الورق الملون

والصور . ومن اشهر العابهم اطارة الطيارات يشترك فيها الصغار والكبار ولعب الورق والدومنو وعندهم كثير من الملاهي للتمثيل وخيال الظل . وهم يدخنون التبغ رجالاً ونساء وتدخين الافيون شائع عندهم

وقلما يفرق لبس الرجال عن لبس النساء . وثياب الفقراء من القطن المصبوغ باللون الازرق وثياب الاغنياء من الحرير . والغالب ان يكون الرداء مطرزاً . وكثيراً ما يلبس الاغنياء الفراء الثمينة . واسلوبهم في اختيار الوان الثياب مخالف لاسلوب الاوربيين فيجمعون غالباً بين القرمزي والازرق . ولون الحداد عندهم الابيض . واحذية رجالهم المكومة من الاطلس . ويحملون المراوح كلهم رجالاً ونساء ويتنطقون ويضع الواحد منهم ساعتهُ وكيسهُ وعلبة السعوط في منطقته

وكانوا يطلقون شعر الرأس كلهُ ثم يجمعونهُ ويعقصونهُ في قمة الرأس فلما تغلب عليهم المشو اضطروهم ان يحلقوا مقدم رؤوسهم ويتركوا شعر ما بقي منها ولكن النساء لا يحلقن شيئاً من رؤوسهن بل يزين شعرهن بالازهار وبدبابيس الذهب واللؤلؤ ويلبسن هن والرجال قلائد اللؤلؤ او الخرز . وقد يطلق الرجل من اهل الوجاهة ظفر اصبع او اصبعين من اصابعهِ حتى يطول جداً ويغطيهِ بغمد من الفضة لكي لا ينكسر

وطعام اكثر الصينيين الارز في الولايات الجنوبية والوسطى والارز والذرة في الولايات الشمالية . ويكثرون كلهم من اكل السمك والدجاج ولحم الخنزير ودقيق الفول ولا يأكلون لحم البقر مطلقاً . واهالي كنتون يربون الكلاب ويحمونها ويأكلونها . ويكثر الصينيون من اكل التوابل والاثمار المقددة . ومما يفاخرون بهِ نوع من الهلام يجدونهُ في عشاش بعض الطيور . والسنة البط وزعانف القرش (اكلب البحر) وادمغة الطيور والاسماك واعصاب الغزلان والحيتان وجذور النيلوفر . ويشربون جمة مصنوعة من نقيع الارز ويستقطرون منها نوعاً من المسكر يشربونهُ سخناً . وخمرهم جيدة لكنهم لا يشربون الى حد السكر . ويشرب فقراؤهم الماء المسخن بدل الشاي

اما الشاي فيشربونهُ قبل الطعام وبعدهُ بفناجين لا عرى لها ولا صحاف تحتها ولكن لها غطاء تغطى بهِ فهم كالفرس من هذا القبيل . وطعامهم الغداء والعشاء . ووقت العشاء من الساعة الرابعة مساء الى السابعة . واذا اولم غني وليمة قدم الى ضيوفهِ اربعة وعشرين لوناً من الطعام ولا بدَّ من ان يكون عدد الالوان مكرر العدد ٤ . ويأكلون طعامهم بملاعق من الخزف الصيني وبعيدان من العاج او الخشب ولهم مهارة فائقة في الاكل بها واذا كان

في البيت ضيوف اكل الرجل وحدهُ معهم ولم تحضر زوجتهُ . والنساء يولمن الولائم للنساء وهم مشهورون باتقان الطبخ ولا يفوقهم في ذلك الا الفرنسويون

طبقاتهم

يقسم الصينيون الى اربع طبقات طبقة الاعيان وطبقة الزراع وطبقة الصناع وطبقة التجار . والسيادة الموروثة قليلة عندهم والاسياد هم اصحاب المناصب في الدولة . والاسر التي لها القاب موروثة قليلة عندهم فهم كالاتراك من هذا القبيل . ومن هذه الاسر اسرة بن وهي من نسل كنفوشيوس . والذين يستطيعون ان يثبتوا انهم من نسل مؤسس دولة المنشو يمتازون بالمنطقة الصفراء ويتلوهم الذين يلتقي نسبهم بنسب مؤسس دولة المنشو ويمتازون بالمنطقة الحمراء . ويخص بالشرف اولاد كل ملك من ملوكهم الى العقب الثاني عشر فقط والذين يمتازونهُ يصيرون مثل عامة الناس ولكن يبقى لهم الحق ان يتمنطقوا بالمنطقة الصفراء . ورؤساء بيوت الامراء الثانية اصحاب الخوذ الذين ساعدوا اول ملك من ملوك المنشو في التغلب على بلاد الصين يتوارثون القابهم كابراً عن كابر

واكثر الصينيين من صغار الفلاحين لكثرة اولادهم ولأن ما يتملكهُ الواحد منهم يقسم عند موتهِ بين اولادهِ وسائر ورثتهِ فتجزأ الاملاك ولا يندر ان يكون كل ما يملكهُ الواحد جزءاً صغيراً من الفدان . فهم كالمصريين من هذا القبيل . واكثر المالكين منهم لا يملك الواحد منهم الا فداناً واحداً الى ثلاثة افدنة فاذا كان لرب البيت ثلاثة افدنة حسب في سعة من العيش واذا كان لهُ عشرة افدنة عُدَّ من الموسرين

والاعيان هم رجال الحكومة المتقاعدون فانهم يوفرون جانباً من دخلهم وهم في خدمة الحكومة يتاعون بهِ الاملاك ويعتزلون اليها بعد انتهاء مدة خدمتهم ويعيشون بالسعة ويبقى لهم شيء من السطوة ويعلّمون بعض اولادهم ليتنظموا في خدمة الحكومة ويجمعوا جانباً من الثروة يزيدون بها ممتلكاتهم فيتولد من ذلك بيوت كبيرة ذات جاهٍ وثروة وهي بيوت الاعيان ويطلق عليهم اسم العلماء والادباء

مقام المرأة عندهم

ومقام المرأة احط من مقام الرجل وطاعتهُ فرض عليها قبلما تتزوج تطيع اباها وبعد ما تتزوج تطيع زوجها فاذا توفي قبلها اطاعت ابنها . ويقال لذلك الطاعات الثلاث اي طاعة الاب وطاعة الزوج وطاعة الابن . ولكن الابن لا يعفى من اكرام امهِ ولو اضطرت ان

تطيعهُ . والضرار محلّل وكتبهُ قليل فاذا شاخت الزوجة فقد تبيح لزوجها ان يتزوج باخرى لكن مقام هذه يكون احط من مقام الزوجة الاولى . والطلاق جائز ايضاً لاسباب سبعة ومع ذلك فمقام المرأة في الطبقات العليا رفيع جداً والغالب انما تكون السلطة المطلقة في بيت زوجها وابنها ولا سيما اذا تقدمت في السن . وكثيراً ما يتعاطى النساء الاعمال ويبرعن فيها ويكون لهنّ شأن كبير في سياسة البلاد وحسبنا شاهداً ان سياسة البلاد كلها بقيت سنين كثيرة في يد الملكة التي توفيت حديثاً

والمشهور ان الصينيين يصغرون اقدام بناتهم وهي عادة قديمة عندهم وهم يستحسنون مشي النساء الخيزلى لصغر اقدامهنّ كأنهنّ الاوربيات اذا لبسن الاحذية الضيقة العالية . وهذه العادة شائعة في بلاد الصين ولكنها غير عامة فان امة المنشو كلها لا تصغر اقدام نسائها وكذلك كثيرون من الصينيين لا يجرون عليها

اصلهم

الصينيون من الجنس المغولي وكذلك المنشو المتسلطون عليهم . وقد امتزج بهم التتار واهالي تبت وبُرْما والمنشو والعرب واليابانيون حتى قلما تجد منهم من دمهُ مغولي صرف . واهالي الولايات المختلفة مختلفون كثيراً في هيئاتهم وفي جمعتهم كلهم عادات الصين الخاصة . وهم قصار القامة غالباً قلما يزيد طول الواحد منهم على خمس اقدام واربع عقد الاَّ في الجهات الشمالية . ورؤوسهم مستديرة اقفيتها وجباههم ضيقة ووجوههم مستديرة ايضاً وافواههم كبيرة وذقونهم صغيرة غير بارزة وعيونهم طويلة لوزية الشكل مرتفعة من مؤخرها وشعرهم غليظ اسود طويل سبط ولحاهم يتأخر ظهورها وهي قليلة الشعر وحواجبهم مستقيمة وحدقات عيونهم سوداء واظفرهم قصيرة في الغالب تميل الى الفطس وايديهم واقدامهم صغيرة ويميلون الى السمن باكراً ولون وجوههم من الاصفر المفتوح الى الاسمر المخلق لا حمرة فيهِ والاصفر هو الغالب

اما المنشو فاصلهم من منشوريا ولا يزالون مستقلين باوصافهم القومية ونظامهم الحربي ولم تبذل الوسائل لنزع الفواصل التي بينهم وبين الامة الصينية الاَّ منذ سنوات قليلة . وهم اقوى من الصينيين بنية ويشبهون سكان الانحاء الشمالية من الصينيين الاَّ ان عيونهم مستوية وهم اهل همة واقدام ولكن الصينيين اشد منهم ذكاء واصبر منهم في معاطاة الاعمال التجارية . ولا يصغرون اقدام نسائهم ويعتصون شعورهم حول حلقة من الفضة في قمة رؤوسهم وليس في لثتهم مؤلفات خاصة بها ولكنها لما كانت لغة البلاط فالصينيون يعنون بدرسها

اديانهم

كان الصينيون في اول عهدهم موحّدين يعتقدون بوجود اله واحد ساكن في الاعالي لا يصل اليهِ ادراك الانسان . لم يكونوا ينظرون اليهِ كخالق لنوع الانسان بل ككائن سامٍ يكره الشر ويسر بالخير ويجازي الناس بالعدل ويأنف ان يُسترضى بالحب والاكرام . فاذا فعل الانسان ما يجب عليهِ لجارهِ فحسبهُ ذلك ولا يطلب منهُ ان يعنى بامر هذا الاله ويترضاهُ الاَّ اذا اراد ان ينعم الاله عليهِ انعامًا خاصًّا . ولم يكونوا يعتقدون بوجود شيطان يطغي الناس ويضلهم ويسر بسقوطهم ولا كانوا يعتقدون أن مَن يحسن عملاً في هذه الدنيا يثاب في الآخرة . وقد اطلقوا على هذا الاله اسم تيَن ومعناهُ في لغتهم السماء ثم اطلقوا عليهِ اسم شانغ في اي السلط الاسمى . وقد يفهمون لهاتين الكلمتين معنيين مختلفين بعض الاختلاف حتى كانهما تدلان على اقنومين في شخص واحد او جوهر واحد فان لفظ تين يدلُّ على معنىً مجرَّد وشانغ يدلُّ على معنىً مجسم فاذا ذكروا الاول قالوا انهُ خفي لا تدركهُ الابصار واذا ذكروا الثاني قالوا انهُ يمشي ويسمع ويسرُّ بالقرابين . هذا كان اعتقادهم في قديم الزمان كما يستدلُّ من اشارات كثيرة في كتبهم لان ليس عندهم كتاب مخصوص توصف فيهِ معتقداتهم وشعائرهم الدينية

ثم اضيف الى هذا الاعتقاد بالاله الواحد عبادة الشمس والقمر والنجوم والسيارات الخمس وبعض النجوم المشهورة كالعيوق الذي يقولون الآن انهُ مسكن اله اطالة العمر . وعبدوا الارض لانها ام البشر او عبدوا اله الارض . ووصفوا الريح والمطر والحر والبرد والبرق والرعد باوصاف الالهة . وقالوا ان الارواح تسكن البيوت والابواب والكوى والدور ولها القدرة على النفع والضر . وقالوا ان للبلاد روحًا وهي الوطنية فيقدم الملك القرابين لها عند ارتقائهِ سرير الملك كانهُ يقدمها الى حب الوطن . ومن قبيل ذلك عبادة الاسلاف وهي قديمة عندهم جدًّا لا يعرف مبدأها . وكان لتقديم الذبائح للارواح خاصًّا بالملك واشراف المملكة اما الرعايا فكانوا يقدمون الذبائح لاسلافهم فقط ولارواح بيوتهم ويلازمون الطهارة والاعتكاف ثلاثة ايام قبل تقديم الذبائح فيكون تأثير الاعتكاف فيهم انهُ يخيل لهم انهم يرون ارواح اسلافهم ويسمعون تنهدهم . وعبادتهم لاسلافهم عبادة حقيقية يريدون بها استرضاء ارواحهم والاستعانة بها في امور الحياة

﴿ الكنفوشيوسية ﴾ وعندهم الكنفوشيوسية نسبة الى كنفوشيوس فيلسوفهم

الاكبر وهي ليست ديانة بل تشبه ان تكون مذهباً فلسفياً ولها سلطة نافذة في كل بلاد الصين حتى كأنها ديانة الدولة

❖ الطاوية ❖ وعندهم ايضاً طريقة اخرى فلسفية اسمها الطاوية اي الطريقة وهي مبنية على وجود اله واحد وراء حدود العالم المنظور منهُ مبدأ الحياة الانسانية واليهِ معادها حيث تتمتع بالخلود وعلى الانسان ان يصلح سيرتهُ الجسدية حسب هذه الطريقة ليتمتع بهذا الخلود . والاله الواحد نقطة متحدة في الاثير نورها يبهر الانظار وحولها تدور ارواح الصلاّح الذين تركوا ارجاس الجسد وراءهم

الاّ ان الطاوية لم تستمر على حالتها الفلسفية المجرّدة بل اقتبست كثيراً من الرسوم بعد انتشار البوذية لكي لا تتغلّب البوذية على اتباعها فصار لها هياكل وصار اتباعها يعتقدون بالثواب والعقاب وقد اقتبست البوذية منها اموراً كثيرة مجرّدة حتى قيل ان الطاوية اقتبست شرّ ما في البوذية والبوذية اقتبست خير ما في الطاوية وصارت الاثنتان ديانتين مثلثتين متناظرتين حتى يتعذّر على المرء ان يفرق بينهما ما لم يكن خبيراً بامور الصين

❖ البوذية ❖ اما البوذية فلا يعلم بالتحقيق زمان دخولها الصين . ويقال ان الملك منغ تي الذي كان بين سنة ٥٨ و ٧٦ للمسيح حلم انهُ رأى رجلاً ذهبياً فعبّر لهُ اخوهُ هذا الحلم بان الرجل الذهبي هو شكيامونى بوذا معبود البلاد الغربية . ويستدلّ من ذلك على ان البوذية كانت معروفة لدى الصينيين منذ عهد قديم جدًّا ولو بالسمع . ويقال انها حاولت دخول بلاد الصين فعلاً سنة ٢١٧ قبل المسيح فان بعض دعاتها حاولوا دعوة الصين اليها حينئذٍ فقُبض عليهم وسجنوا لكنهم خرجوا من السجن بالمجوبة فان رجلاً ذهبياً جاءهم نصف الليل وفتح ابواب السجن واخرجهم منهُ . ومن المحقق ان البوذية دخلت في عهد منغ تي اي في القرن الاول من التاريخ المسيحي وان ثمانية عشر رجلاً أرسلوا سنة ٦٥ الى خوطان للبحث عن البوذية فعادوا في السنة التالية ومعهم كتابات وصور بوذية وكاهن هندي ثم تبعهُ كاهن آخر وبنى لها هيكل في لوياغ وكانت عاصمة الصين حينئذٍ فجعلا يترجمان كتب بوذه الى اللغة الصينية ولم يبقَ مما ترجماهُ الاّ «السوتر» او الفصول الاثنان والاربعون . واستمرّ قدوم الكهنة من الهند الى الصين مدة المئتين والخمسين سنة التالية لترجمة الكتب الدينية ونشر الدعوة في البلاد لان الصينيين ظلوا محرومين من الانتظام في سلك الكهنة الى القرن الرابع من التاريخ المسيحي وحينئذٍ كثر عدد البوذيين من الصينيين فسيم منهم الكهنة وجعل هؤلاء الكهنة يرحلون الى بلاد الهند ليزوروا الاماكن التي كان فيها بوذا ويجلبوا منها الكتب والصور الدينية

وبقي الكهنة من الهنود يفدون على بلاد الصين . وسنة ٤٠١ للمسيح استقرَّ كُمارا جيفا الحبر البوذي التاسع عشر في بلاط الملك ياوهسنغ وهذا الحبر هو الذي ترجم «سورة» الماس الى اللغة الصينية . ثم أعطي منصب الافتاء في المملكة واملى شروحهُ لكتب بوذه الدينية على ثمانية من الكهنة ونظم « شذوراً » في الحقائق والاشياء . وسنة ٥٢٠ للمسيح جاء الصين الحبر تامو الملقب بوذا الابيض فوصل كتسون ومعهُ الاناء المقدَّس انائه الحبرية البوذية وهو آخر حبر من احبار الغرب واول حبر من احبار الشرق . ودعاهُ ملك الصين الى تمكين واكرم وفادتهُ لكنهُ اغاظ الملك بقولهِ لهُ ان فضل الانسان لا يكون باعمالهِ بل بطهارتهِ وحكمتهِ . ثم خرج الى لويغ وعبر نهر يتغسي راكباً على قصبة وقضى بقية عمرهِ هناك وهو يعلِّم ان الديانة لا تحصَّل من مطالعة الكتب بل يجب على الانسان ان يطلب بوذه ويجدهُ في قلبهِ

وتقلَّبت الشؤون على البوذية في بلاد الصين فكان اتباعها يضطهدون اضطهاداً شديداً في بعض الازمنة او يُرضَى عنهم وينصرهم الملوك الى ان كان القرن الحادي عشر فشاعت في البلاد كلها وهي الديانة المتغلبة الآن في بلاد الصين يدين بها الخاصَّة والعامَّة اما العامة فيقضون فروضها وقد لا يفهمون شيئاً من جوهرها

وهذه الاديان الثلاثة اي الكنفوشيوسية والطاوية والبوذية هي الاديان المعترف بها كاديان وطنية . والملك هو الحبر الاعظم للمملكة كلها واقامة الشعائر الدينية الكبرى منوطة بهِ وبنوَّابهِ . وليس للكنفوشيوسية كهنة مع انها ديانة الحكومة بالذات اذا صحَّ ان تسمَّى ديانةً . وعلى الملك ان يقرب الذبائح مرةً في السنة وقت الانقلاب الشتوي في هيكل السماء بكين كرئيس الاحبار

﴿ الديانة المسيحية ﴾ يقال ان النساطرة ارسلوا دعاتهم الى بلاد الصين سنة ٦٣١ فادخلوا اليها الديانة المسيحية باسم التعليم المنير . وسنة ٦٣٨ صدر امر ملكي يقال فيهِ ان اولوفون الكاهن النسطوري اتى بديانة فحصها الملك بدقة فوجدها صالحة من كل وجه فيؤذن بالتبشير بها والدعوة اليها من الآن فصاعداً في كل بلاد الصين . واذن حينئذٍ باقامة دير يقيم فيهِ ٢١ كاهناً . ومن ثم جعل المذهب النسطوري ينتشر في بلاد الصين الى سنة ٧٨١ وبعد ذلك تتلمس خلفهُ رويداً رويداً وبقي شيء منهُ في عهد مركو بولو في القرن الثالث عشر ثم زال تماماً وبقي لهُ ذكر قليل في كتب الصين . وعاد المبشرون الى بلاد الصين في اواخر القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر ونجحوا في دعوتهم ثم تضعضعت احوال المتنصرين واعاد المبشرون الكرة في القرن الماضي . وقد قدَّر اليسوعيون ان عدد المسيحيين اتباع

المذهب الكاثوليكي كان سنة ١٩٠٧ ١٩ مليون نفس وقدّرت الجمعيات البروتستانتية ان عدد اعضاء كنائسها ٢٥٠٠٠٠

﴿ المانية ﴾ اي الديانة التابعة لماني الفارسي الذي توفي سنة ٢٧٤ للمسيح دخلت بلاد الصين سنة ٧١٩ وانتشرت فيها قليلاً ثم تلاشت في اواسط القرن التاسع

﴿ المزدكية ﴾ المزدكية او ديانة زردشت القائمة بعبادة النار دخلت بلاد الصين سنة ٦٢١ لكنها لم تنتشر فيها ثم عفت آثارها منها في القرن التاسع

﴿ الاسلام ﴾ المظنون ان في الصين الآن نحو ثلاثين مليوناً من المسلمين ولا يعلم بالتحقيق متى دخل الاسلام بلاد الصين ولكن يقال ان اصل المسلمين الموجودين الآن في بلاد الصين اربعة آلاف من العرب ارسلهم الخليفة ابو جعفر المنصور سنة ٧٥٥ للمسيح لمساعدوا ملك الصين على اخماد ثورة قامت في بلاده وأذن لهم ان يسكنوا بلاد الصين ويتزوجوا فيها. ثم دخل الصين كثيرون من العرب في زمن جنكيز خان فزاد بهم عدد المسلمين حتى لما دخل ابن بطوطة بلاد الصين في اواسط القرن الرابع عشر وجد فيها كثيرين منهم حيث مرّ في البلاد قال « واهل الصين كفار يعبدون الاصنام ويحرقون موتاهم وملك الصين تتري من ذرية جنكيز خان وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناها ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون » . ولا يفرق المسلمون الآن عن غيرهم من الصينيين ولا شيء يمنعهم من ممارسة فرائض دينهم ولهم ان يشيّدوا المساجد حيثما شاءوا على شرط ان يضعوا فيها ظغراء الملك في مكان ظاهر كما يفعل البوذيون في هياكلهم

ولما ذكر المسعودي بلاد الصين قال في ما رواه عنها « ان احد ملوكها افتتح مدينة خانقو الصينية عنوةً وقتل من اهلها خلقاً لا يحصون كثرة وأحصي من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس من قتل وغرق خوف السيف فكان مئتي الف » ثم قال « وانما أحصي ما ذكرناه من هذا العدد لان ملوك الصين تحصي من في مملكتها من رعيتها وكذا من جاورها من الامم ليصير ذمة (١) لها في دواوين لها يكتّاب قد وكلوا باحصاء ذلك لما يراعون من حياطة من شملهُ ملكهم » . وامر احصاء السكان في بلاد الصين صحيح فان صحّ ايضاً ما ذكرهُ المسعودي منذ نحو الف سنة (٣٣٢ للهجرة) من ان عدد من قتل من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس مئتا الف فتكون هذه الاديان قد انتشرت كثيراً في بلاد الصين من قبل ذلك العهد

(١) يظهر لك ان كلمة الذمة والذي يرادفها الاصل من ذمومس اي الشمس او الرعية وبهذا المعنى يفهم كلام المسعودي

هذا وقد نشرنا في المجلد السادس والعشرين من المقتطف مقالتين مسهبتين للامير شكيب ارسلان في اديان اهالي الصين فعلى من اراد التوسع في هذا الموضوع ان يراجعهما في مكانهما

التعليم

بقي التعليم الى آخر القرن التاسع عشر محصوراً في درس اللغة الصينية وآدابها وكتبها القديمة ولم تكن الدولة تعنى بامره بل كان اهل اليسار يستأجرون المعلمين لتعليم اولادهم والفقراء يعلمون اولادهم في مدارس صغيرة . ولم يكن التعليم اجبارياً ولكنه كان جارياً على نسق واحد يتبعه الناس بالتقليد فيشرع الاولاد بحفظ الكتب القديمة مدة خمس سنوات ثم يتمرنون على كتابة المكاتيب وانشاء الرسائل وبذلك يتم تعليم الاولاد الذين لا يقصدون الانتظام في خدمة الدولة اما اذا كان المراد ان ينتظموا في هذه الخدمة فلا بدّ لهم من ان يدرسوا دروساً اخرى حتى يسهل عليهم الانشاء والنظم ثم يمتحنون امتحاناً دقيقاً وقد شرحنا ذلك بالاسهاب في المجلد الثامن عشر من المقتطف في مقالة موضوعها مملكة العلم والعلماء

لكن المرسلين المسيحيين الذين اتوا بلاد الصين من كاثوليك وبروتستانت انشأوا فيها المدارس الابتدائية والعالية وعلموا اولاد الصينيين الذين تنصروا والذين لم يتنصروا كما فعلوا في هذا القطر والقطر السوري ولم يكتفوا بذلك بل انشأوا مدارس كلية ومدارس جامعة فكثر عدد المتعلمين من الرجال والنساء وقد لقينا بعضهم في بعض اسفارنا واذا هم مثل افضل المتعلمين من الاوربيين

وقد اقتدت دولة الصين بالمرسلين فانشأت مدرستين كليتين سنة ١٨٦١ الواحدة في بكين والثانية في كنتون وانتهما بالاساتذة والمعلمين من اوربا وكان غرضها الاول تعليم اللغات الاجنبية كالانكليزية والفرنسوية لاجل الترجمة وسنة ١٨٨٠ ارسل والي نانكين اربعين شاباً الى اميركا ليتعلموا فيها العلوم العالية ويعودوا الى بلادهم فيعلموا فيها ولكن شاع عنهم حينئذٍ انهم افرطوا في اقتباس العادات الاميركية فاعيدوا الى بلادهم واهمل امرهم

ولما وضعت الحرب الصينية اليابانية اوزارها ألّف الوالي تشانغ شن تنغ كتاباً موضوعهُ منجاة الصين اقام فيه الادلة على وجوب اصلاح التعليم في بلاد الصين فعملت الدولة برأيه بعد ثورة البوكسر وانشأت مدرسة جامعة في بكين سنة ١٩٠٢ وزاد الاهتمام بامر التعليم بعد حرب روسيا واليابان ووضع لهُ نظام كامل من باب نفوذ مدارسهُ على تعليم اللغة الصينية

وآدابها والعلوم الطبيعية الحديثة والتاريخ والجغرافيا واللغات الاجنبية والرياضة البدنية ثم الاقتصاد السياسي وشرائع الدول

وسنة ١٩١٠ انشئت مدارس كثيرة للتعليم الابتدائي والتعليم الثانوي ومدارس خصوصية للزراعة والهندسة . في كل ولاية الآن مدرسة جامعة تعلم العلوم العالية وجامعة بكين تعلم من اللغات الانكليزية والفرنسوية والالمانية واليابانية والروسية وتعلم العلوم الرياضية على انواعها والحقوق والكيمياء والفسيولوجيا وما اشبه واعانتها من الاوربيين واليابانيين . وقد انشئت مدرسة كلية لتعليم العلوم الطبية في مدينة بكين سنة ١٩٠٦ يسعى الاطباء من المرسلين الانكليز انشئت باموال اكتتب بها الصينيون والنزلاء واعترفت حكومة الصين بالدبلوما التي تعطيها هذه المدرسة وقطعت لها مبلغاً من المال لنفقتها . ولما تنازلت الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٠٨ عن مليونين ونصف مليون من الجنيهات فُرضت لها تعويضاً عمَّا انفقته لقمع ثورة البركسر خصصت حكومة الصين مليونين ونصف مليون من الجنيهات لتعليم الشبان في الولايات المتحدة . والظاهر ان الصينيين متعطشون اشد التعطش لاقتباس العلوم الاوربية ومجاراة اليابانيين في هذا المضمار وقد ترجموا كثيراً من الكتب العلمية المعدودة من الطبقة الاولى فانتشرت في البلاد وزادت بها رغبة الناس في اقتباس العلوم

الصحافة

في بكين جريدة قديمة يقال انها اقدم جريدة في المسكونة وهي كالوقائع المصرية خاصة بنشر الاوامر الرسمية ونحوها من لوائح الحكومة ومنشوراتها . واول جريدة حقيقية في جريدة اخبار شنغاي أُنشئت سنة ١٨٧٠ وكان محررها الاول انكليزياً . ثم تلتها جرائد اخرى يومية واسبوعية وشهرية حتى بلغ عددها في العام الماضي اكثر من ٢٠٠ . وليس في الصين قانون خاص بالصحافة ولكن لا يستلم البريد صحيفة ما لم تسجل اولاً كصحيفة ثم يستطيع كل واحد ان يلغي الصحيفة ويسجن صاحبها اذا رأى فيها ما يسيئهُ . وكان الامبراطور السابق قد امر باطلاق الحرية للصحافة سنة ١٨٩٨ وعين واحدة من الصحف لسان حال الحكومة ثم ألغت الامبراطورة هذا الامر ومنعت الصحف من البحث في امور المملكة لكن الصحافة استمرت في سيرها حتى صار لها مقام رفيع في البلاد كلها وكلمة مسموعة فلما رأى الولاة ذلك اشتروا الصحف كلها حتى لم تأتِ سنة ١٩١٠ وفي البلاد صحيفة حرة تستطيع ان تتكلم بما تريد